فبشرية الإنسان لا يمكن أن تُعطى الدقة المتناهية . وهذا معنى ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ ﴾ [الأحزاب] ﴿ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأنبياء] لأن معياره تعالى لا يختلف ، ولا ينسى شيئاً ، ولا يغفل عن شيء .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾

يريد الحق - تبارك وتعالى - أن يُسلِّي رسوله ﷺ ويُخفِّف عنه ما لاقاه من قومه ، فيذكر له نماذجَ من إخوانه أُولي العزم[1] من الرسل الذين اضطهدهم أقوامهم ، وآذوهم ليُسهِّل على رسول الله مهمته ، فلا يصده إيذاء قومه عن غايته نحو ربه .

فبدأ بموسى - عليه السلام - لأنه من أكثر الرسل الذين تعبوا في دعوتهم ، فقد تعب موسى مع المؤمنين به فضلاً عن الكافرين به ، فقال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [الأنبياء] لأن رسالتهما واحدة ، وهم فيها شركاء : ﴿ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [القصص] وقال : ﴿ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ ﴾ [طه]

والفرقان : هو الفارق القوي بين شيئين ؛ لأن الزيادة في المبنى تدل على زيادة في المعنى ، كما تقول : غفر الله لفلان غفراناً ،

(١) يقول تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ .. ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأحقاف] . قال ابن كثير في تفسيره (١٧٢/٤) : « قد اختلفوا في تعداد أولي العزم على أقوال ، وأشهرها أنهم : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وخاتم الأنبياء كلهم محمد ﷺ . وقد يحتمل أن يكون المراد بأولي العزم جميع الرسل فتكون (من) في قوله (من الرسل) لبيان الجنس والله أعلم » .

وتقول : قرأت قراءة ، وقرأت قـرآناً ، فليست القراءة واحدة ، ولا كل كتاب يُقرأ .

والفرقان من أسـماء القرآن : ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١)﴾ [الفرقان]

فالفرقان ـ إذن ـ مـصدر يدلُّ على المبالغة ، تقـول : فرَّق تفريقاً وفرقاناً ، فزيادة الألف والنون تدل على زيادة فى المعنى ، وأن الفَرْق فى هذه المسـألة فَـرْق جليل وفَـرْق واضح ؛ لأن كـونك تُفـرِّق بين شيئـين الأمر بينهما هيِّن تسـمى هذا فَرْقاً ، أمَّا أن تفرق بين شـيئين يتـرتب على ذلك خطورة فى تكـوين المـجتـمع وخطورة فى حـركـة الحياة ، فهذا فرقان ؛ لذلك سَمَّى القرآن فرقاناً ؛ لأنه يُفرِّق بين الحق والباطل .

ومن الفرقان ، قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا .. (٢٩)﴾ [الأنفال] وتقوى الله لا تـكون إلا بتنفيـذ أوامره وتعـاليمـه الواردة فى القـرآن الذى نزل على محـمـد ، والفرقـان هنا يعنى : نور تُفَرِّق به بين الأشياء وتُميِّز به بين المتشابهات .

وعلى قَدْر مـا تتقى الله باتباع الفـرقان الأول يجعل لكم الفـرقان الثـانى ، وتتكوَّن لديـكم فـراسة المـؤمن وبـصيـرته ، وتـنزل عليكم الإشراقات التى تُسعف المؤمن عندما يقع فى مأزق .

ألاَ تراهم يقـولون : فـلان ذكى ، فـلان حـاضر البـديهـة . أى : يستحـضر الأشياء البـعيدة وينتفع بها فى الوقـت الحاضـر ، وهذا من توفيق الله له ، ونـتيجـة لبصيـرته وفراسـتـه ، وكانت العـرب تضرب

المثل فى الفراسة والذكاء بإياس بن معاوية حتى قال الشاعر[١] :

إقْدامُ عَمْرٍو فى سَمَاحَةِ حَاتمٍ   فى حِلْمِ أحنَفَ فى ذَكَاءِ إيَاسِ

ويُرْوَى أن الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور لما أراد أنْ يحج بيت الله فى آخر مرة ، بلغه أن سفيان الثورى[٢] يتناوله وينتقده ويتهمه بالجور ، فقال : سوف أحج هذا العام ، وأريد أنْ أراه مصلوباً فى مكة ، فبلغ الخبر أهل مكة ، وكان سفيان الثورى يقيم بها فى جماعة من أصحابه من المتصوفة وأهل الإيمان ، منهم سفيان بن عيينة والفضيل بن عياض ، وكانا يُدلِّلان الثورى ويعتزان به .

وفى يوم كان الثلاثة فى المسجد والثورى مُسْتَلْقٍ بين صاحبيه يضع رأسه فى حِجْر أحدهما ، ورجْلَيْه فى حِجْر الآخر ، وقد بلغهم خبر المنصور ومَقالته ، فتوسل ابنُ عيينة والفَضيل للشيخ الثورى : يا سفيان لا تفضحنا واختفِ حتى لا يراك ، فلو تمكَّن منك المنصور ونفذ فيك تهديده فسوف يَضعف اعتقاد الناس فى المنسوبين إلى الله .

وهنا يقول الثورى : والذى نفسى بيده لن يدخلها ، وفعلاً دخل المنصور مكة من ناحية الحجون ، فعثرت به الدابة ، وهو على مشارف مكة فوقع وأُصيب بكسر فمات لساعته . ودخل المنصور مكة محمولاً وأتَوْا به إلى المسجد الحرام حيث صلى عليه الثورى .

---

(١) هو : أبو تمام حبيب بن أوس الطائى ، ولد بقرية من قرى الشام (١٨٠ هـ) ، نشأ نشأة متواضعة ، حيث كان يعمل صبياً لحائك ، توفى عام (٢٣١هـ) عن ٥١ عاماً .

(٢) هو : سفيان بن سعيد بن مسروق الثورى ، من مُضَر أبو عبد الله ، أمير المؤمنين فى الحديث ، ولد بالكوفة (٩٧ هـ) ، كان سيد أهل زمانه فى علوم الدين والتقوى راوده المنصور العباسى على أن يلى الحكم فأبى ، مات مستخفياً بالبصرة من المهدى عام (١٦١ هـ) (الأعلام للزركلى ٣/١٠٤) .

هذا هو الفرقان والنور والبصيرة وفراسة المؤمن الذى يرى بنور الله ، ولا يصدر فى أمر من أموره إلا على هَدْيه .

ويُروى أن المهدى الخليفة العباسي أيضاً دخل الكعبة ، فوجد صبياً صغيراً فى السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمره يلتف حوله أربعمائة شيخ كبير من أصحاب اللحى والهَيْبة والوقار ، والصبى يُلْقى عليهم درساً ، فتعجب المهدى وقال : أفٌّ لهذه السعانين يعنى الذقون ، أمَا كان فيهم مَنْ يتقدم ؟! ثم دنا من الصبى يريد أن يُقرِّعه ويُؤنِّبه فقال له : كم سِنّك يا غلام ؟ فقال الصبى : سني سِنُّ أسامة بن زيد حينما ولاه رسول الله ﷺ إمارة جيش فيه أبو بكر وفيه عمر ، فقال له المهدى - معترفاً بذكائه وأحقيته لهذا الموقف : بارك الله فيك .

فالفرقان - إذن - لا تُستعمل إلا للأمور الجليلة العظيمة ، سواء ما نزل على موسى ، أو ما نزل على محمد ، إلا أن الفرقان أصبح علَماً على القرآن ، فهناك فَرْق بين العلم والوصف ، فكل ما يُفرِّق بين حَقٍّ وباطل تصفه بأنه فرقانٌ ، أمَا إنْ سُمِّى به ينصرف إلى القرآن .

والمتأمل فى مادة (فَرَق) فى القرآن يجد أن لها دوراً فى قصة موسى عليه السلام ، فأول آية من آياته : ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ .. ۝٥٠﴾ [البقرة]

والفَرْق أنْ تفصل بين شيء مُتصل مع اختلاف هذا الشيء ، وفى علم الحساب يقولون : الخَلْط والمزج ، ففَرْق بين أن تفصل بين أشياء مخلوطة مثل برتقال وتفاح وعنب ، وبين أنْ تفصلها وهى مزيج من العصير ، تداخل حتى صار شيئاً واحداً .

إذن : ففَرْق البحر لموسى - عليه السلام - ليس فَرْقاً بل فرقاناً ،

لأن أعظم ألوان الفروق أن تَفرق السائل إلى فِرْقَيْن ، كل فِرق كالطود[1] العظيم ، ومَنْ يقدر على هذه المسألة إلا الله ؟

ثم يقول تعالى : ﴿وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنبياء] أي : نوراً يهدي الناس إلى مسالك حياتهم دون عَطَب ، وإلاَّ فكيف يسيرون في دروب الحياة ؟ فلو سار الإنسان على غير هدى فإمّا أنْ يصطدم بأقوى منه فيتحطم هو ، وإمّا أن يصطدم بأضعف منه فيحطمه ، فالضياء - إذن - هام وضروري في مسيرة الإنسان ، وبه يهتدي لحركة الحياة الآمنة ويسعى على بينة ، فلا يَتْعب ، ولا يُتعب الآخرين .

﴿وَذِكْرًا .. ﴿٤٨﴾﴾ [الأنبياء] أي : يذكّر ويُنبّه الغافلين ، فلو تراكمتْ الغفلات تكوّنَ الران الذي يحجب الرؤية ويُعمي البصيرة ؛ لذلك لما شبه النبي ﷺ غفلة الناس قال : « تُعْرَض الفتن على القلوب كالحصير عُوداً عُوداً » .

وفي رواية : « عوذاً عوذاً »[2] أي : يستعيذ بالله أن يحدث هذا لمؤمن ، فهل رأيتَ صانع الحصير حينما يضمُّ عُوداً إلى عُود حتى يُكوِّن الحصير ؟ كذلك تُعرَض علينا الفتن ، فإنْ جاء التذكير في البداية أزال ما عندك من الغفلة فلا تتراكم عليك الغفلات .

« فأيُّما قلب أُشْرِبها - يعني قَبلَها - العود تلو العود - نُكِتَتْ فيه نكتة سوداء ، وأيُّما قلب أنكرها نُكِتَتْ فيه نكتة بيضاء ، حتى تكون

---

(١) الطود : الجبل الثابت العالي . قال تعالى : ﴿فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ [الشعراء] .

(٢) وقال ابن الأثير : روي بالذال المعجمة ، كأنه استعاذ من الفتن . [لسان العرب - مادة : عوذ] .

على قلبين - صدق رسول الله - على أبيض مثل الصفا لا تضره فتنة ، ما دامت السموات والأرض . أو على أسود كالكوز مُجَخِّياً - يعنى منكُوساً - لا يعرف معروفاً ، ولا ينكر منكراً »[1] .

قالوا : فذلك هو الرَّانُ الذى يقول الله فيه : ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المطففين] والذكر هو الذى يُجلِّى هذا الران .

﴿ وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الأنبياء] ومن صفاتهم أنهم :

﴿ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

الخشية : الخوف بتعظيم ومهابة ، فقد تخاف من شىء وأنت تكرهه أو تحتقره . فالخشية كأنْ تخاف من أبيك أو من أستاذك أنْ يراك مُقصِّراً ، وتخجل منه أنْ يراك على حال تقصير . فمعنى الخوف من الله : أن تخاف أن تكون مُقصِّراً فيما طُلب منك ، وفيما كلَّفك به ؛ لأن مقاييسه تعالى عالية ، وربما فاتكَ من ذلك شىء .

وفى موضع آخر يشرح الحق سبحانه هذه المسألة ، فيقول : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [فاطر] لماذا ؟ لأنهم الأعلم بالله وبحكمته فى كونه ، وكلما تكشَّفَتْ لهم حقائق الكون وأسراره ازدادوا لله خشية ، ومنه مهابة وإجلالاً ؛ لذلك قال عنهم : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ .. ﴿٥٠﴾ ﴾ [النحل] أى : أعلى منهم وعلى رؤوسهم ، لكن بِحُبٍّ ومهابة .

ومعنى : ﴿ بِالْغَيْبِ .. ﴿٤٩﴾ ﴾ [الأنبياء] أنهم يخافون الله ، مع أنهم

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٤٤) كتاب الإيمان ، وأحمد فى مسنده (٥/٣٨٦ ، ٤٠٥) من حديث حذيفة بن اليمان رضى الله عنه .

لا يَرَوْنه بأعينهم ، إنما يَرَوْنَه فى آثار صُنْعه ، أو بالغيب يعنى : الأمور الغيبية التى لا يشاهدونها ، لكن أخبرهم الله بها فأصبحتْ بَعْد إخبار الله كأنها مشهدٌ لهم يروْنَها بأعينهم .

أو يكون المعنى : يخشون ربهم فى خَلَواتهم عن الخَلْق ، فمهابة الله والأدب معه تلازمهم حتى فى خَلْوتهم وانفرادهم ، على خلاف مَنْ يُظهِر هذا السلوك أمام الناس رياءً ، وهو نمرود فى خَلْوته .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (٤٩) ﴾ [الأنبياء] والإشفاق بمعنى الخوف أيضاً ، لكنه خَوْف يصاحبه الحذر مما تخاف ، فالخوف من الله مصحوب بالمهابة ، والخوف من الساعة مصحوب بالحذر منها ، مخافة أنْ تقوم عليهم قبل أنْ يُعِدوا أنفسهم لها إعداداً كاملاً يُفرحهم بجزاء الله ساعة يلقوْنَه .

﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (٥٠) ﴾

أى : كما جاءت التوراة ﴿ ذِكْراً .. (٤٨) ﴾ [الأنبياء] كذلك القرآن الذى نزل عليك يا محمد (ذكر) ، لكنه ﴿ ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ .. (٥٠) ﴾ [الأنبياء] يقولون : هذا شىء مبارك يعنى : فيه البركة ، والبركة فى الشىء أنْ يعطى من الخير فوق ما يتوقع فيه .

كما كان النبى ﷺ يسقى صحابته من قَعْب[1] واحد من اللبن[2] ،

(١) القَعْب : القدح الضخم الغليظ ، وقيل : قدح من خشب مُقعَّر ، وهو يُروى الرجل . [لسان العرب ـ مادة : قعب] .

(٢) أخرج البخارى فى صحيحه (٤١٥٢) ، والبيهقى فى دلائل النبوة (٤/١١٥) من حديث جابر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ أتى يوم الشجرة فى الحديبية بماء فى تور ، فوضع يده فيه ، فجعل الماء يخرج من بين أصابعه كأنه العيون ، قال : فشربنا ووسعنا وكفانا ، فقيل لجابر : كم كنتم ؟ قال : لو كنا مائة ألف كفانا ، كنا ألفاً وخمسمائة .

ويُطعِم الجيش كله من الطعام اليسير القليل[1] . وتسمعهم يقولون : فلانٌ راتبه ضئيل ، ومع ذلك يعيش هو وأولاده في كذا وكذا فنقول : لأن الله يُبارك له في هذا القليل .

فمعنى ﴿ ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ .. ﴿٥٠﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : فيه من الخير فوق ما تظنون ، فإياك أنْ تقولوا : إنه كتاب أحكام وتكاليف فحسْب ، فالقرآن فيه صفة الخلود ، وفيه من الأسرار مَا لا ينتهى ، فبركته تشمل جميع النواحى وجميع المجالات إلى أنْ تقومَ الساعة . فمهما رددنا آياته نجدها جميلة مُوحِية مُعبِّرة . فكل عصر يأتى بجديد ، لا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه فهو مبارك لأن ما فيه من الخير يتجاوز عصر الرسول ﷺ وكل العصور والاعمار والقرون فيعطى كل يوم سراً جديداً من أسرار قائله سبحانه .

إذن : فالقرآن ﴿ ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ .. ﴿٥٠﴾ ﴾ [الأنبياء] لأن ما فيه من وجوه الخير سيتجاوز العصر الذى نزل فيه ، ويتجاوز كل الأعمار وكل القرون ، فيعطى كل يوم لَوْناً جديداً من أسرار قائله والمتكلِّم به ؛ لذلك يتعجَّب بعدها من إنكار القوم له : ﴿ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الأنبياء] أمِثْل هذا الكلام يُنكر ؟

وسبق أنْ أوضحنا أقوالهم فى القرآن .

منهم مَنْ قال : سحر . ومنهم من قال : شعر . ومنهم من قال :

---

(١) عن عبد الله بن عباس قال : إن رسول الله ﷺ لما نزل مَرَّ فى صلح قريش قال أصحاب النبى ﷺ : يا رسول الله لو نحرنا من ظهورنا فأكلنا من لحومها وشحومها وحسونا من المرق أصبحنا غداً إذا غدونا عليهم وبنا جَمَام قال : لا ولكن ائتونى بما فضل من أزوادكم . فبسطوا أنطاعاً ثم صبُّوا عليها فضول ما فضل من أزوادهم . فدعا عليهم رسول الله ﷺ بالبركة ، فأكلوا حتى تضلعوا شبعاً ، ثم لفَّفوا فضول ما فَضُل من أزوادهم فى جُربهم . أخرجه مسلم فى صحيحه (كتاب اللقطة - باب استحباب خلط الأزواد إذا قلَّت) . وأخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٤/١٢٠) .

كذب وأساطير الأولين ، وهذا كله إفلاس فى الحُجَّة ، وتصيُّد لا معنى له ، ودليل على تضارب أفكارهم .

ألم يقولوا هم أنفسهم : ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾ [الزخرف] إذن : هم يعرفون صدْق القرآن ومكانته ، وأنه من عند الله ، ولا يعترضون عليه فى شىء ، إنما اعتراضهم على مَنْ جاء بالقرآن ، وفى هذا دليل على أنهم ليستْ عندهم يقظة فى تغفيلهم .

وتأمل : ﴿وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ .. (٥٠)﴾ [الأنبياء] ولم يقل : هذا القرآن ، كأنه لا يُشار إلا إلى القرآن .

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ (١) مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١)﴾

نلاحظ أن الحق سبحانه بدأ تسليته لرسوله ﷺ بذكْر طرف من قصة موسى ، ثم ثنَّى بقصة إبراهيم ، مع أن إبراهيم عليه السلام سابقٌ لموسى ، فلماذا ؟ قالوا : لأن موسى له صلَة مباشرة باليهود وقريب منهم ، وكان اليهود معه أهلَ جَدَل وعناد .

ومعنى ﴿رُشْدَهُ .. (٥١)﴾ [الأنبياء] الرُّشْد : اهتداء العقل إلى الأكمل فى الصلاح والأعلى فى الخير ، بحيث لا يأتى بعد الصلاح فسادٌ ، ولا بعد الخير شر ، ولا يُسلمك بعد العُلو إلى الهبوط ، هذا هو الرُّشْد . أما أنْ يجرَّك الصلاح الظاهر إلى فساد ، أو يُسلِمك الخير إلى شر ، فليس فى ذلك رُشْدٌ .

---

(١) أى : من قبل النبوة . أى : وفقناه للنظر والاستدلال . لما جَنَّ عليه الليل فرأى النجم والشمس والقمر . وقيل : « من قبل » أى : من قبل موسى وهارون . والرشد على هذه النبوة . وعلى الأول أكثر أهل التفسير . قاله القرطبى فى تفسيره (٦/٤٤٧٣) .

والآن نسمعهم يتحدثون عن الفنون الجميلة ، ويستميلون الناس بشعارات برّاقة أعجبتْ الناس حتى وصلت بهم الجرأة إلى أنْ قالوا عن الرقص : فنٌّ راقٍ وفنّ جميل .. سبحان الله ، الرقص كما قلتم لو أنه فعلاً راقٍ وجميلٌ ، وظل كذلك إلى آخر الطريق ، ولم ينحدر إلى شيء قبيح وهابط ، ماذا يحدث حين يجلس الرجل أمام راقصة تُبدى من مفاتنها وحركاتها مَا لاَ تُحسنه زوجته في البيت ؟ كم بيوت خَرِبَتْ وأُسَر تهدمت بسبب راقصة ، فأيُّ رقيٍّ ؟ وأيُّ جمال في هذا الفن ؟!

لذلك ؛ فالإمام علي - كرَّم الله وجهه - لخَّص هذه المسألة فقال : « لا شَرَّ في شَرٍّ بعده الجنة ، ولا خيرَ في خير بعده النار » .

إذن : على الإنسان أن ينتبه إلى الرُّشْد الذي هو اهتداء العقل إلى الصالح الأعلى أو إلى الكمال الأعلى أو الخير الأعلى . وهذا الرُّشْد له اتجاهان : رُشْد البِنْية ، ورُشْد المعنى .

رُشْد البِنْية وهو اكتمال تكوين الإنسان بحيث يُؤدِّي كل جهاز فيه وظيفته ، وهذا لا يكون إلا بعد سنِّ البلوغ ، وقد جعل الخالق سبحانه استواء الأعضاء التناسلية دليلاً على اكتمال هذا الرُّشْد حين يصير المرء قادراً على إنجاب مثله .

وهذا واضح في الثمار حيث لا يحلو مذاقها إلا بعد نضجها واكتمال بذرتها لتكون صالحة للإنبات إذا زرعتها ، وهذا من حكمة الخالق - سبحانه وتعالى - فنأكل الثمرة ونستبقي نوعها ببذرتها الصالحة ، أمّا لو استوت الثمرة للأكل قبل نُضْج بذرتها لأكلنا الثمار الموجودة ولم نستبق نوعها فتنقرض .

لذلك ، من حكمة الله أيضاً أن الثمرة إذا استوتْ ونضجَتْ ولم تجد مَنْ يقطفها تسقط من تلقاء نفسها ، وتُجدِّد دورتها في الحياة .

ولأمر ما جعل الله التكليف بعد البلوغ ، فلو كلّفك قبل البلوغ لوجدتَ في التكاليف نَهْياً عن بعض الأمور التي لا تعرفها ولا تدركها . وقد تعترض على ربك : كيف أفعل يا ربِّ وقد جاءتني هذه الغريزة ففعلتْ بي كذا وكذا .

ولكل آلة وجهاز في جسم الإنسان رُشْد يناسبه ، ونمو يناسب تكوينه ، فمثلاً عَيْن الطفل وفمه وأصابع يده كلها تنمو نمواً مناسباً لتكوين الطفل .

أما الأسنان ففيها حكمة بالغة من الخالق عز وجل ، فقد جعل للطفل في المرحلة التي لا يستطيع فيها تنظيفَ أسنانه بنفسه ، ولا حتى يستطيع غيره تنظيفها جعل له (طقماً) احتياطياً من الأسنان ، يصاحبه في صغَره تُسمَّى الأسنان اللبنية ، حتى إذا ما شَبَّ وكَبِر واستطاع أنْ يُنظِّف أسنانه بنفسه أبدله الله (طَقْماً) آخر يصاحبه طوال عمره .

وهناك رُشْد أعلى ، رُشْد فكري معنوي ، رُشْد يستوي فيه العقل والتفكير ويكتمل الذِّهْن الذي يختار ويُفَاضل بين البدائل ، فقد يكتمل للمرء رُشْده البُنياني الجسماني دون أنْ يكتملَ عقله وفكْره ، وفي هذه الحالة لا نُمكِّنه من التصرف حتى نختبره ، لنعلم مدى إحسانه للتصرف فيما يملك ، فإنْ نجح في الاختبار فَلْنُعْطه المال الذي له ، يتصرف فيه كما جاء في قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم[1] مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ .. ⑥ ﴾ [النساء] أي : لا تنتظر حتى يكبر ، ثم تعطيه

(١) آنس الشيء : أدركه وأحسّه ببصره ، أو بعلمه وفكره . وقوله ﴿ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا .. ⑥ ﴾ [النساء] . أي : علمتم وأدركتم إدراكاً معنوياً . [القاموس القويم ٣٧/١] .

ماله ، يفعل فيه ما يشاء دون خبْرة ودون تجربة ، إنما تختبره وتَشْركه فى خضمِّ الحياة ومعتركها ، فيشبّ مُتمرِّساً قادراً على التصرف السليم .

وفى آية أخرى قال تعالى : ﴿وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ .. (٥)﴾ [النساء] لأنهم إنْ بلغوا الرُّشْد البدنىّ فلم يبلغوا الرُّشْد العقلى ، وإياك أن تقول : هو ماله يتصرف فيه كما يشاء ، فليس للسفيه مال بدليل : ﴿وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ .. (٥)﴾ [النساء] ولم يقُلْ : أموالهم ، فهو مالُكَ تحافظ عليه كأنه لك ، وأنت مسئول عنه أمام الله ، ولا يكون مال السَّفيه له إلا إذا أحسنَ التصرف فيه .

ومن الرُّشْد ما سماه القرآن الأشدّ : ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي[1] أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ .. (١٥)﴾ [الأحقاف]

والأشُدُّ هو : التسامى فى الرُّشْد وقال هنا (أربعين سنة) مع أننا ذكرنا أن الإنسان يبلغ رُشْد البِنْية ورُشْد العقل بعد سنّ البلوغ فى الخامسة عشرة تقريباً ، إذن : مَنْ لم يرشُدْ حتى الأربعين فلا أملَ فيه ، والنار أوْلَى به ؛ لأنه حين يكفر أو ينحرف عن الطريق فى عنفوان شبابه وقوته نقول : شراسة الشباب والشهوة والمراهقة ، إلى آخر هذه الأعذار فإذا ما بلغ الأربعين فما عذره ؟

وإذا لم يتلقّ مبادئ الرُّشْد فى صغَره وفى شبابه ، فلا شكّ أنه سيجد فى أحداث الحياة طوال أربعين سنة واقعاً يُرشده قَهْراً عنه ،

---

(١) أوزعه أن يفعل كذا : دفعه وحثّه وأغراه . أو ألهمه وأرشده . قال تعالى : ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ .. (١٥)﴾ [الأحقاف] . أى : ألهمنى شكرك وادفعنى إليه وحبّبه إلىّ . [القاموس القويم ٢ / ٣٣٤] .

حيث يرى أعماله وعواقبها وأخطاءه وسقطاته ، وينبغى أنْ يأخذ منها درساً عملياً نظرياً فى الرُّشْد .

ومن ذلك ما نسمعه من مصطلحات معاصرة يقولون « الرشد السياسى » ويقولون « ترشيد الاستهلاك » ، ما معنى هذه المصطلحات ؟ معناها أن أحداث الحياة وتجاربها وعدم الرُّشْد فى مسيرتهم عضَّت الناس ، وألجاتْهم إلى التفكير فى ترشيد يُذهب هذا الفساد .

إذن : فالرُّشْد للذات والترشيد للغير كما نفعل فى ترشيد استهلاك القمح مثلاً وكنا نعلف به المواشى ، حتى أصبحنا لا نجده ؛ لذلك بدأنا فى ترشيد استهلاك رغيف الخبز وصرْنا نقسمه أربعة أقسام ، ونأكل بحساب ، ولا نهدر شيئاً ، وما يتبقى يتبقى نظيفاً نأكله فى وَجْبة أخرى .

وقد لا يكون عند الخباز نفسه ترشيد ، فيُخرج الرغيف قبل استوائه متجده عجيناً ، كله لبابة ، فتأتى ربة البيت الواعية فتفتح الرغيف قبل وضعه على المائدة ، وتُخرج منه هذه اللبابة ، وتجمعها ثم تُحمِّصها فى الفرن ، وتصنع منها طعاماً آخر .

وما يقال فى « ترشيد الخبز » يقال فى « ترشيد الماء » ، وقد أمرنا رسول الله بترشيد استهلاك الماء حتى فى الوضوء الذى هو قربى إلى الله .

هذا الرُّشْد الذى وصفنا رُشْد كل عاقل غير الرسل ، وهو أنه يهتدى إلى قضايا حياته ، ويتصرّف فيها تصرفاً سليماً ، إنما مقتضى نتيجة هذا الصلاح فى الدنيا ، أما الرسل فلهم رُشْد آخر ، رُشْد أعلى للدنيا وللآخرة ، وهذه هبة من الله للرسل .

قال تعالى فى حَقِّ إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ .. ﴿٥١﴾ ﴾ [الأنبياء] وكأن رُشْد إبراهيم لا يخضع لهذه القواعد ، ولا يرتبط ببلوغ ، ولا نبوة ، بل هو رُشْد سابق لأوانه منذ أنْ كان صغيراً يتأمل فى النجوم ويبحث عن ربه :

﴿ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَـٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـٰذَا رَبِّي هَـٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الأنعام]

فكان ـ عليه السلام ـ مُؤهَّلاً للرسالة منذ صغَره ، ولما أُرسل ونُبِّىء ظهرتْ مواهب رُشْده حين أُلقِى فى النارَ ، وجاءه جبريل ـ عليه السلام ـ يعرض عليه المساعدة ، فيقول إبراهيم : أما إليك فلا . وهذه أول بشائر الرشد الفكرى والعقدى عند إبراهيم .

وفى حقِّه قال تعالى : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ .. ﴿١٢٤﴾ ﴾ [البقرة] أى : اختبره فى أشياء فأتمهُنَّ وأتى بهنَّ على أكمل وجه ، منها : أنه طلب منه أنْ يرفعَ قواعد البيت ، وكان يكفى أن يرفع إبراهيم قواعد البيت إلى ما تطول يده ، إنما إبراهيم عليه السلام كان حريصاً أنْ يتم الأمر على أكمل وجه ، فيفكر ويحتال فى أنْ يأتىَ بحجر ويقف عليه ليرفع البناء بمقدار الحجر ، ويساعده ولده الصغير إسماعيل فيناوله الحجارة ، لكن الولد الصغير تتزحلق قدماه حينما يرفع الحجارة لأبيه ، فيحتال على هذا الأمر فيحفر فى الحجر على قَدْر قدميه حتى يثبت ، وهاتان القدمان نشاهدهما حتى الآن فى حِجْر إسماعيل .

إذن : كان عنده عِشْق للتكاليف وحِرْص على إتمامها .